

العودة المتخيلة - المستقبل

## عامر حليحل\*

### البلاد تتسع للجميع (مشهد مسرحي)

**غرفة** استقبال في مكتب - واضح أن المكتب جديد - الطاولة من نوع ألومينيوم بزّاق لها قاعدة حجرية من جهة اليسار، ومن القاعدة يرتفع عمود بشكل ملتوٍ يحمل سطح الطاولة البيضوي. على الطاولة شاشة كمبيوتر مسطحة. لوحة مفاتيح لاسلكية بتصميم "منيمالست". أمام اللوحة صورة في برواز، لرجل في أوائل الأربعينيات يتوسط طفلين، أحدهما في الثامنة والآخر في العاشرة، جميعهم يبتسمون بشكل مبتذل، بسمة تعبّر عن عائلة سعيدة بالغضب. إلى جانب لوحة المفاتيح هاتف مكتبي ضخم، وبقربه على الطرف الأيمن مجموعة من الملفات.

وراء الطاولة تجلس الموظفة: طلاء أظافرها ليلكيّ مرصع طرف كل ظفر منها بحبات لؤلؤ مزيفة - هذا أبرز ما في الموظفة - في أواخر ثلاثينياتها، تلبس قميصاً وردياً ضيقاً يبرز صدرها الصغير نسبياً، شعرها أملس، صبغت أطرافه بلون ليلكي يشبه لون الأظافر. تلبس نظارة واسعة، إطارها مورّد. تنظر الموظفة في أوراق جمال. جمال في منتصف الثلاثينيات، يلبس بنطلون جينز وسترة خضراء باهتة تغطي ملبسه بقع، الأمر الذي يدل على أنه عامل بناء.

فوق الموظفة علّق ملصق كبير كُتب عليه بالعربية: "البلاد تتسع للجميع"، وتحتها العبارة نفسها بالعبرية.

تمر فترة ليست قصيرة من الصمت، الموظفة تقرأ الاستمارة وجمال ينظر إليها بهدوء.

الموظفة: إنت طالب شقة ١١٠ متر، مع إنك مش متجوز. المتجوزين بطلعهن ١١٠، المش متجوزين بطلعهن بس ٨٠ متر.

جمال: بس أنا خاطب، والعرس بشهر ٧، يعني كمان شهرين.

الموظفة: بس حالياً إنت خاطب، بلا ما تتجوز رسمي بنفعض أسجلك متجوز..

\* ممثل ومخرج فلسطيني.

جمال: ما هو أنا بدي ١١٠ متر لأنو بعد العرس وشهر العسل بدنا نيجي أنا ومرتي نسكن فيها!!

الموظفة (تفكر): إنتو كاتبين كتاب؟

جمال: لأ، أبوها بدُّش يكتب كتاب قبل ما أخذ الدار.

الموظفة: بدي أساعدك بس بقدرش. (صمت) بتعرف شو؟ إستنى لحظة!

(ترفع سماعة الهاتف وتضغط على أحد الأزرار)

الموظفة: (إلى السماعة) صباحو سمر، كيفك اليوم؟ كَنِّك إسا واصلة؟ عن جد؟ ولاي، موت

أزمة السير صايرة، البلد مخنوقة..! منتأمل إنو شهر شهرين بكون الكل صار موزَّع عبلا دو

وموطن وبتنحل.. قوليلي حبيبتي.. سامي وصل؟ تحوليني لعندو بحياتك أغلبك؟ تسلميلي...

(تضع السماعة وتفتح مكبر صوت الهاتف، نسمع موسيقى انتظار، صمت)

الموظفة: وين رايحين شهر عسل؟

جمال: تركيا.

الموظفة: وين بتركيا؟

جمال: وين يعني، أنطاليا!!

الموظفة: وين بأنطاليا؟

جمال: بأوتيل

الموظفة: عارفة، بس أي أوتيل؟

جمال: أنا بعرفش، خطيبتي اللي حجزت، حجزت أوتيل إشي إشي...

الموظفة: قديش كلف؟

جمال: كلف كلف..

الموظفة: قديش يعني؟

جمال: أنا عارف؟ شي ٤٠٠٠.

الموظفة: دولار؟

جمال: شيكل.

الموظفة: بـ ٤٠٠٠ شيكل بكنش أحسن إشي، ويكون مليون عرب؛ إحنا منرحش غير على

أوتيلات بتكلف ٣٠٠٠ دولار وفوق، بتشفش ولا عربي.

جمال: ليش يعني مش لازم أشوف عرب؟

الموظفة: بتعرف العرب كيف، بنعجقوا وبصيحوا وبرقصوا بالبركة...

جمال: أنا عارف؟ يعني اللي طالع رحلة مفروض ينبسط وينعجق لاه؟

الموظفة: آه بس مش هيك!

(صمت)

الموظفة: بتعرف شو، ما دام عم نستنى، خلينا نستغل الوقت وأصور كل وراقك، بس بدي

جواز سفرك لو سمحت.

جمال: جواز سفر؟  
الموظفة: أو وثيقة السفر، مش مهم.  
جمال: معاي هويتي، ما جبتش الجواز.  
الموظفة: بعرفش إذا بزبط هوية، لازم جواز عشان نلائم الأرقام مع الملفات اللي وصلتنا من كل دولة.  
جمال: أي دولة؟ مش فاهم!  
الموظفة: مش مهم، إعطيني الهوية أفحص إذا الرقم مسجل بشي محل وبقدر اعتمده.  
(يُخرج جمال من جيبه هوية زرقاء اللون - الهوية الإسرائيلية - ويناولها للموظفة)  
الموظفة: هاي هوية إسرائيلية! يعني هوية البلاد!  
جمال: آه، في مشكلة؟  
الموظفة: إنت من وين خيّا؟  
جمال: من صفورية!  
الموظفة: قصدي وين ساكن كنت كل حياتك؟  
جمال: بحارة الصفاورة في الناصرة!  
الموظفة: معناه ليش مقدم هاد الطلب؟  
جمال: شو يعني ليش مقدم؟  
(تنقطع الموسيقى من الهاتف ونسمع صوت سامي، وهو مدير القسم، يهودي في الخمسينيات، يتحدث العربية والعبرية بطلاقة)  
سامي: "بوكر طوف حموداه" (صباح الخير يا حلوة!)  
الموظفة: صباح الخير سامي.  
سامي: شو في؟ "بما أني ياخول لعزور" (بشو بقدر أساعدك؟)  
الموظفة: "هيتاه لي بعياه كتناه، أفال عخشاف يش بعياه يوتر جدولاه" (كان عندي مشكلة صغيرة، وإسا طلعتلي وحدة كبيرة)، بلها وبرجعك!  
سامي: "بسيدير مامي" (ماشني يا قمر).  
(تغلق الموظفة الخط، تنظر إلى جمال طويلاً، لا تدري من أين تبدأ)  
الموظفة: أتطلع.. (تفتش عن الاسم في الملفات)  
جمال: جمال..  
الموظفة: (تبتسم بسمّة صفراء) جمال.. مزبوط.. في مشكلة..  
جمال: شو المشكلة؟  
الموظفة: إعطيني المجال أشرحك لو سمحت..  
جمال: تفضلي.  
الموظفة: بعد المصالحة.. اجتمع المجلس الوطني العام، اللي اشترك فيه ممثلين عن اليهود وعن العرب عشان يصيغوا الاتفاق التاريخي النهائي.. ولما وصلوا لموضوع العودة، وطبعاً

موضوع العودة كان أكثر موضوع حساس، اتفقوا في الآخر على إنو للفلسطيني المهجر حق العودة لأي مكان بفلسطين التاريخية، وإنو الدولة الجديدة ملزمة بتوفير أماكن سكن للعائدين بالقرى والمدن اللي تهجروا منها. وبما إنو أغلب القرى المهجرة تدمرت على إيد الدولة - الصهيونية طبعاً - أقامت الدولة - الجديدة - مشروع إعمار القرى المهجرة وتوطين السكان الأصليين فيها... والاتفاق هاد..

جمال: إنتي ليش عم تشرحيلي كل هاد؟ ما أنا عارف! عشان هيك أنا مقدّم الطلب، أنا من صفورية!

الموظفة: خليني أكمل لو سمحت... الاتفاق كان واضح إنو بحلّ مشكلة اللاجئين ومش المهجرين!

جمال: نعم؟

الموظفة: اللاجئين هنيّ اللي خلال فترة حكم الصهيونية كانوا خارج حدود الوطن، والمهجرين هنيّ اللاجئين داخل حدود الوطن.. عشان هيك، وبما إنو المهجرين بقيوا في الوطن خلال الحكم الصهيوني، وبعدهن موجودين لليوم في الوطن مش مشمولين في خطة التوطين، لأنهن مواطنين أصلاً، ومكان سكنهن في البلاد..

جمال: بس اللي فهّمونا اياه عال تلفزيون إنو مشروع السلام النهائي..

الموظفة: المصالحة..

جمال: نعم؟

الموظفة: المصالحة التاريخية، مش سلام

جمال: المصالحة التاريخية يا ستي، مش مهم، المهم إنو في هاي المصالحة فهّمونا إنها جاي تعمل عدل مع الفلسطينيّة وإنو تحل مشكلة اللاجئين.

الموظفة: بالضبط هيك.

جمال: طب ما انا لاجئ.

الموظفة: إنتي مهجر.

جمال: شو الفرق؟

الموظفة: شرحتك اياها، إنت بقيت هون، واللاجئ ما بقيش هون، وإسا بحقلّوا يرجع والدولة مجبورة تلاقيلو حل توطين.

جمال: يعني محمد ابن عمي لاجئ، لأنو جاي من عين الحلوة، وأنا مش لاجئ لأنني ساكن بالصفافرة، مع إنو إسرائيل طلعت أبوه وأبوي من نفس البيت؟

الموظفة: الدولة الصهيونية، مش إسرائيل!

جمال: شو الفرق؟ مش فاهم!

الموظفة: بالمصالحة التاريخية، اتفقوا في المجلس الوطني العام.

جمال: (يعلو صوته) بعرف بعرف، بعرف إنو هاي البلاد صار إسمها فلسطين شحطة إسرائيل، بعرف بعرف منيح.. شو خص هاد باللي عم نحكيه مش فاهم أنا!

الموظفة: لو سمحت خلينا نحكي بهدوء، هاي مش ورشة عمار، هاد مكتب حكومي!  
جمال: ناديلي المدير تبعك، (يصرخ) نادي المدير تبعك قبل ما أهينك!  
(الموظفة خائفة، تضغط على زر الهاتف، نسمع صوت موسيقى، ثم نسمع صوت سمر)  
سمر: آه حبيبتي؟

الموظفة: خلي سامي يبجي عندي عالمكتب ضروري.

سمر: شو في؟

الموظفة: بقلك بدي سامي ضروري.

(تغلق الهاتف. تنظر إلى جمال الذي يبدو أنه لن يهدأ قريباً. تخفض نظرها عنه نحو

بعض الأوراق)

جمال: طبعاً، إنت صعب تحلي الموضوع، لازم تنادي المدير اليهودي!

الموظفة: شو خص يهودي بالموضوع، سامي المدير!

جمال: هاد الموضوع بعينه، إنو المدير! إنو اليهودي بعدو هو المدير.

الموظفة: البلد تغيرت وسامي مدير مش لأنو يهودي.

جمال: لأنو إيش لكان؟

الموظفة: بنفعلش تحكي هيك لما رئيس الحكومة صار عربي.

جمال: ورئيس الدولة يهودي.

الموظفة: بس تقاسموا الصلاحيات النص بالنص.

(يدخل سامي)

سامي: "ما كوريه؟ عود إحاد روتسيه لخزور لبايت همكوري سنهراس" (شو في؟ كمان

واحد بدو يرجع على بيتو المهدم؟)

جمال: "لو! إحاد شروتسيه لخزور لكفار شيلو" (لأ، واحد بدو يرجع عبده)

سامي: بتحكي عبري؟ من وين الأخ؟

الموظفة: من الصفافرة، من الناصرة!

جمال: من صفورية، ساكن بالصفافرة!

سامي: "بوئو نراجع كولام" (خلينا نهذا شوي)

جمال: بنفع نحكي بالعربي ما دام حضرتك بتحكي عربي أو مفروض تحكي عربي في

هالبلد؟

سامي: طبعاً طبعاً، فش أي مشكلة، بالعكس! (صمت) تفضّل احكي لي شو القصة؟

جمال: فش قصة، في توطين للاجئين في قراهم وأنا بدي أتوطن في قريتي، في مشكلة؟

سامي: مبدئياً فش مشكلة، بس تقنياً في.. بعد اجتماع المجلس الوطني العام..

جمال: بعرف بعرف، حكتلي الأخت قرارات وخطط المجلس الوطني العام.. هاد كلو ما

بعينني.

الموظفة: كيف يعني ما بعينك؟

جمال: لو سمحت، مش إنت ناديتي المدير لأنك مش عارفة تحلّي الموضوع؟ إعطي مجال هو يحلها!

الموظفة: لو سمحت احكي معي بأدب.

سامي: لو سمحتوا خلينا رايقين! (إلى الموظفة) خليني أحكي أنا مع الأخ...

جمال: جمال.. جمال بكر.

سامي: أهلين خيا جمال، أنا سامي.

جمال: بعرف!

سامي: أخي جمال، إنت وحسب القرارات واتفاق المصالحة النهائي ما بطلعك ترجع على صفورية لأنك ساكن بالبلد وما تركتها، التوطين ومشروع إعمار القرى المهجرة هو بس للاجئين اللي ما عاشوا بالبلد خلال فترة الدولة الصهيونية..

جمال: فهمناها هاي، بس أنا بعنينايش.

سامي: كيف يعني ما بعنيك، هاد قرار أجمع عليه كل قيادات الشعبين، وهو ملزم إلك مثل ما هو ملزم إلي.

جمال: ملزم إلك؟ كيف يعني؟ حضرتك تهجرت من قرية وبتقدرش ترجع عليها؟

سامي: مش القصد، بس يعني مثل ما اليهود ملزمين بقرار بسحب منهم حقهم على هاي البلاد وأفضليتهم فيها، كمان الفلسطينيين ملزمين بالقرارات اللي بتخصهم.

جمال: أنا ما بتخصني هاي القرارات.

سامي: أخي جمال.. إحنا موظفين، فش عنّا إمكانية نوطنك، هاد غير قانوني. أنا فاهم

شعورك بس..

جمال: إنت فاهم شعوري؟ عن جد فاهم شعوري؟ شعور شو اللي فاهمو؟ شعور شو؟ شعور

إنك تخلق في مخيم لاجئين مسمينو حارة من مدينة بتعدك لاجئ كل عمرك؟ شعور إنك من بلد بتبعد كم كيلومتر عن الحارة اللي ساكن فيها، وإذا فكرت مرة بحياتك تقرّب عالبلد تبعتك بتهموك بالتعدي على أراضي الدولة؟

الموظفة: اليوم تغيّرت القوانين!

جمال: (يتجاهلها) شعور إنك مش تابع ولا لمحل؛ ولا لمحل، لأنك في البلد اللي ساكن فيها

إنت لاجئ وبنفس الوقت بلدك ممنوع تفوتها؟

الموظفة: إسا الوضع مش هيك؟

جمال: (يتجاهلها) بدي أحكيك هالشغلة.. أبوي كان عامل بسيط، معلّم عمار، بس الحظ

حالفو وصار مقاول، وصار معو شوية مصاري، عمّر دار كبيرة، علمنا أنا وإخوتي في

الجامعات، علمني مهندس...

الموظفة: (تنظر إلى ملابسه المتسخة باستهجان)

جمال: (إلى الموظفة) نعم يا ستي أنا مهندس، مع إني ما كنتش بدي أكون مهندس، ولا مرة

فكرت أكون مهندس، أصلاً ولا مرة لحقت أفكر شو بدي أصير بس أكبر، لأنو أبوي كان مخطط

كل إشي، واحد مهندس، واحد محاسب، واحد دكتور، ووحدة معلمة.. وهيك صار، كلنا صرنا شو أبوي كان بدو ايانا نصير. تخرجنا واشتغلنا، وعملنا مصاري، وبنينا بيوت واشترينا سيارات، وخبينا دولارات وذهب للنكبة الجاي.. إخوتي تجوزوا وخلفوا، وأنا لاحقهن... بس ولا مرة تهنينا بإشي. وكل الوقت كنت أسأل حالي، ليش في شعور بعدم الرضا مغلف العيلة دائماً.. ولا مرّة فهمت.. لحد قبل سنة، أبوي كان عم بموت.. نادانا وقال بصوت بارد بدون ولا حبة شعور.. قال: "يا ولاد.. لما أموت بتجيبوا كم سطل تراب من صفورية بتحطوهن على وجه القبر بجوز أرتاح بموتّي"... (صمت) هاد الشعور انت بتعرفو؟ يمكن حضرتها بتعرفو، بس بدهاش تنشغل فيه.. بس أنا مشغول فيه.. أنا بدي أرتاح كمان.. بصرش ولاد عمامي من عين الحلوة توطنوا في صفورية، وأنا لأ.. وأنا بدي أتوطن كمان.. حقّي لا؟! زي ما هو حقهن! (صمت)

سامي: قصة بتقشعر البدن! (ينظر جمال إليه بنظرة حادة معناها "لا تلعب معي") أخي جمال، أنا فاهمك.. جد فاهمك.. الإشي الوحيد اللي بقدر أعملو معك هو كتير قريب على طلبك، بس مش بالضبط طلبك!

جمال: بديش أسمع!

سامي: إنت حر!

الموظفة: إسمع، شو بصير عليك؟

جمال: (بعد صمت) إحكي!

سامي: إسمع.. بعد المصالحة التاريخية، والاتفاق النهائي، في مجموعة من اليهود.. كيف بدي أحكيك اياها؟ ما عجبهم الوضع، وبالذات الناس اللي ساكنة على أراضي قرى مهجرة، فقرررو إنهن بدهن يتركوا "الموشافيم" (المستوطنات) اللي ساكنين فيها ويروحوا على تل أبيب؛ حيفاً؛ هيرتسليا؛ وما شابه.. إسا من هادول الناس في كتير من "تسيبوري"... الموظفة: إسم المستوطنة التي قامت على أنقاض صفورية.

جمال: بالله جد؟ عم تشرحيلي إلي؟

سامي: المهم، كتار من "تسيبوري" تركوا بيوتهن؛ الدولة عشان ما تعمل ضجة من الموضوع ويصير حكي إنو اليهود ما بدهن يسكنوا مع العرب وإنو الحل مش حقيقي ومش ممكن يتطبق، اشترت منهن البيوت، بأسعار معقولة كتير...

جمال: (يفهم إلى أين يجري الحديث) طيب؟!؟

سامي: "تسيبوري" تقريباً فاضية اليوم، فيها ٣ أو ٤ بيوت مسكونين بس..

جمال: طيب؟!؟

سامي: الدولة مش عارفة شو تعمل مع البيوت، وفي فكرة إنو ينعمل "بايلوت"...

جمال: (مقاطعاً) مشروع تجريبي!

سامي: وعم تفحص إمكانية توطين عرب فيها.. يعني إذا بدك، ممكن أفحص إمكانية إنك

تاخذ دار في "تسيبوري" بدل صفورية..

جمال: شو عم تحكي إنت؟ شو صرلي ساعة بحكيك أنا؟  
سامي: أنا عم أحاول ألقيلك حل للموضوع.  
جمال: بدك ايانى أسكن بمستوطنة قامت على أرض عيلتي؟  
سامي: بس ما هي بطّلت مستوطنة، بعدين مش أراضي "تسيبوري" هي أراضي صفورية بالأصل؟ (صمت) إذا بتسكن هناك، هيك بتكون حققت كمان خطوة بالعودة!  
الموظفة: على فكرة "تسيبوري" بتهدل!  
جمال: (مستهتراً) بالله جد؟!  
الموظفة: آه عن جد، بعدين "تسيبوري" كل بيت لحاله، مش "شيكونات" (مساكن جماعية منظمة)، يعني بكون عندك بيتك مع جنينة نص دونم، غير إنك بتطل على صفورية من فوق.. (يهز سامي رأسه موافقاً فتحمس الموظفة)، غير إنك بتراجع عند حماك مع دار أقل إشي ٢٢٠ متر.. بعدين إنت فاهم شو الحالة بصفورية؟ الناس على بعضها.. وبتعرف كيف العرب إحنا.. فوضى وقيامه قايمه.. بدك تعيش بمخيم لاجئين إنت؟  
جمال: بتعرفي إنك عنصرية خيتا؟ بس عنصريتك غريبة، عنصرية ذاتية خلينا نسميها...، يعني لازم يدرسوها بالجامعات!  
(يقطع سامي الحديث)  
سامي: إسمع أخي جمال، رَوِّح عالبيت إسّا.. فكَر بالموضوع منيح.. وأنا بفحص الإمكانية، مع إنني متأكد إنو راح تزبط.. ومنحكي يوم ال... ايش اليوم؟  
الموظفة: الإثنين.  
سامي: الإثنين.. معناتو منحكي يوم الأربعاء، وإذا إنت موافق، كيف بحكوها بالعربي؟ على بركة الله!  
(صمت طويل)  
جمال: بس في سؤال.. واذا اليهود اللي ساكنين في "تسيبوري" عملوا مشاكل إنو عربي اجا سكن عندهن؟  
سامي: (مفكراً) اتركها للدولة.. منحلها هاي.. بعدين ما إنت عارف "تل أفيف تاميد تهبي شام" (تل أبيب دايماً راح تكون موجودة).. مندبرهم! ■